ابن سينا وكيمياؤه

الدكتور
فاضل احمد الطائي

القسم الثاني

الكيمياء عند ابن سينا (٣٣)

سلك ابن سينا مسلك جابر بن حيان من حيث الاعتقاد في تكوين المعادن ، وجاءت نظريته في هذا الموضوع مطابقة لنظرية جابر الى حد كبير ، فيقول ابن سينا في هذا الباب : ان المعادن كلها تتكون نتيجة لاتحاد الزئبق بالكبريت ، او اجسام مشابهة لهما . فاذا كان الزئبق نقياً واتحد بالكبريت الابيض النقي الممتاز الذي يفوق ما يحضر ه الكيمياويون كن الناتج فضة . اما إذا كان الكبريت انقى من النوع الذي ذكرناه آنفاً ، واشد بياضاً وافتراراً حاداً ، وملوّناً ، فانه يجمد الزئبق ويعقده ويجعله ذهباً . وإذا كان الكبريت غير نقي . والزئبق كذلك فانهما ينعقدان ليكونا النحاس . وعندما يكون الزئبق غير نقي وفاسداً ترابياً يعوزه التماسك ، ويكون الكبريت مشوباً فيتكون الحديد من اتحادهما ، اما القصدير فيتكون على هيئة طبقات نتيجة لاتحاد زئبق غير نقي ، تعوزه قوة التماسك ، مع كبريت فاسد ، لذا كان القصدير زاعقاً — وهذا ما يسميه الكيمياويون في الوقت الحاضر « صراخ القصدير » — ويحدث هذا نتيجة لاحتكاك بلورات القصدير بعضها ببعض ، ويعزو ابن سينا تكوّن الرصاص الى اتحاد كبريت فحم ، فاسد وضعيف ، بزئبق غير نقي ، لذا كان تصلبه ناقصاً .

ويعلق هوليارد بقوله « يتوقع المرء من ابن سينا ان يكون متعلقاً بالنظرية السائدة في عصره من حيث تركيب المعادن ، ان يثق فيما يدعيه كيماويو عصره ، بل يطري عليهم لتمكنهم من تحويل العناصر من واحد الى آخر ، وبالتالي تحويل العناصر البخسة الى عناصر ثمينة ، غير ان ابن سينا كان على النقيض من ذلك ، فهو يسخر من هذه النظرية ، وينفيها نفياً باتاً . ويقول هناك شك ضعيف في امكان كيمياويي عصره تدبير مواد صلبة من عنصر الى آخر من حيث الحسن فحسب ، وهكذا يتوهم ، الفرد في ظواهر هذه العناصر . فيخال استحالة احدها الى الاخر ممكنة . والحقيقة ان تركيبها لم يتغير بالرغم من التغيير الذي طرأ على ظاهرها . وان الكيمياويين لعاجزون عن تدبير العناصر الثمينة ، التي تماثل ما صنعته الطبيعة من حيث التكوين والتركيب .

ويرد ابن سينا على ادعاء الكيمياويين بقوله : يجب ان يكون واضحاً وضوحاً تاماً، ان ليس في مقدور المدعين تحويل العناصر من نوع الى آخر تحويلا حقيقياً ولكن باستطاعتهم تقليد العناصر تقليداً جيداً من حيث اللون والمظهر فقط ، فهم يتمكنون من تحويل عنصر احمر اللون الى ابيض يشبه الفضة ، وبامكانهم ايضاً تلوين عنصر ابيض اللون وجعله شبيهاً بالذهب او النحاس ، وفي مقدورهم تخليص الرصاص والقصدير من الشوائب والمثالب ، وفي جميع هذه الاحوال يبقى العنصر محافظاً على تكوينه الاساسي ، فلا يتغير تركيب العنصر إذا ما تغير لونه بالصبغ والتدبير ، وهكذا فان باستطاعة المدعين تقليد ظواهر العناصر المدبرة فيحسبون الاستحالة ممكنة ، غير ان الخطأ في التركيب . ويستطرد ابن سينا فيقول : « بأنه لا ينفي قدرة المدعين الفائقة في التقليد الظاهر بحيث يخدعون اذكى الناس ، ولكنه يستغرب كل الاستغراب من امكانية التحويل حقاً . ويعتبر ذلك امراً مستحيلا . إذ ليس في امكان احد ان يفكك التركيب المعدني ، ويدبر معدناً آخر ، فالتغيرات الظاهرية التي يحدثها المدعون في المعادن ، هي ليست الصفات الاساسية التي تميز معدناً عن آخر ، وهذه الصفات لا زالت مجهولة ، فكيف يكون في مقدور المرء تدبير امر مجهول او تحطيمه » . يتضح مما تقدم ان ابن سينا كان مؤمناً برأيه

فقد انهى كلامه في هذا الباب بجمله قصيرة ، هي « كان بامكاني ان اطيل في الرد على مدعي الصنعة ، غير اني اعتبر ذلك ضرباً من ضياع الوقت » .

إن ادعاء تحويل العناصر بعضها الى بعض قد حظي بالرواج والترحيب ، بل الى حد الايمان عند بعض الكيمياويين ، كما صادف النفي البات عند البعض الاخر وبقي ضرب آخر من الكيمياويين بين الايمان والشك من فكرة التحويل ، وقال هذا الضرب بأن التحويل ممكن ، اما بوساطة الطبيعة ، او السحر الابيض فحسب . هذا وان فكرة الشك في امر استصالة المعادن ، وتحولها من عنصر الى آخر ، قائمة حتى في عهد جابر بن حيان ، ويذكر هوليارد ان الرازي قد صنف كتاباً في تفنيد المشككين ، والرد العنيف عليهم ، وكان من بين المشككين بهذه الفكرة العالم والمترجم الممتاز حنين بن اسحق .

ان هجوم ابن سينا على مدعي الصنعة ، اي تحويل المعادن بعضها الى بعض ، لم يمر دون تعليق وتفنيد ، بل تعرض لكثير من النقد ، والتمحيص ، ولاسيما من قبل الطغرائي الوزير* ، والشاعر بالدرجة الاولى ، والكيمياوي بالدرجة الثانية ، حتى اشار الى ان ابن سينا قد وقع في تناقض واضح ، فقد ناقض نفسه في مكان آخر من الكتاب نفسه ، ويقصد الطغرائي « كتاب الشفاء » لابن سينا ويعلق هوليارد على هذا بقوله « لم يلق هجوم ابن سينا على دعاة الصنعة أذناً صاغية في زمانه ، شأنه في ذلك شأن آرائه الأخر ، كان ابن سينا سابقاً لزمانه » لذا استمر دعاة الصنعة اصحاب تحويل المعادن في ادعاءاتهم وعملهم بحماس اكثر غير مكترثين لما اورد ابن سينا من شكوك في مذهبهم

والتاريخ حافل بذكر النصّابين والدجالين الذين ادعوا الحصول على معدن الذهب

---

*الوزير الطغرائي : (٤٥٣ هـ ــ ٥١٥ هـ) قوام الدولة مؤيد الدين ابو اسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد الاصبهاني المنشئ الطغرائي وكان يلقب « فخر الدين » له تصانيف كثيرة منها « جامع الاسرار » كتاب « تراكيب الانوار » وكتاب « ابطال الحكمة » رد فيه على الشيخ الرئيس ابن سينا وكتاب « مصابيح الحكمة » وكتاب « مفاتيح الحكمة » وله ديوان شعر كبير جيد ومن محاسن شعره قصيدته المشهورة « لامية العجم » . تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ، ق ٤ ، ص ٧٧٧ . والبداية والنهاية : ج ٢ ، ص ١٩٠ ومرآة الزمان : ج ٨ ، ق ١ ، ص ٩٢ وعيون الأنباء : ج ١ ، ص ٢٦٧ ومعجم الأدباء : ج ٢ ، ص ٢٥٦ والأعلام : ج ٢ ، ص ٢٦٧

من بعض الاتربة والعقاقير البخسة . ويستشهد هولميارد بقصة لاحد هؤلاء الدجالين في عهد ابن سينا ، حيث زار هذا الدجال دمشق ولديه قليل من برادة الذهب الممزوجة بالفحم الدقيق وغراء السمك وبعض العقاقير الاخرى،وعجن هذه كلها ثم جعلها على هيئة حبات صغار وجفّفها ، ولبس لباس الدراويش وباع الحبات بثمن بخس الى احد الاقرباذين باسم (طبرمق خراسان) ، وخلع عنه لباس الدراويش ولبس بزة انيقة ، وظهر بزي الاثرياء ، واستأجر خادماً ، ثم سار نحو المسجد ، حيث اختلط هناك بالرجال البارزين ، وادعى انه قادر على ان يصبح ذا ثروة كبيرة في يوم واحد ، وعزا هذا الامر الى حذقه في صنعة الذهب .

وسمع الوزير بهذا الرجل ، وارسل بطلبه ، وذهب واياه الى بلاط السلطان ، وعندما سأله السلطان عما إذا كان بامكانه تحضير الذهب ، اجاب الدجال بالايجاب ، شريطة ان يحصل على جميع المواد التي يطلبها لغرض الصنعة ، وهكذا طالب ببعض العقاقير والمواد الكيمياوية وضمنها (طبرمق خراسان) . ولما كان السلطان شديد الرغبة في مشاهدة التجربة بنفسه ، امر رجاله بشراء ما طلبه الدجال بالسرعة المستطاعة . وبعد فترة وجيزة عاد الرجال ، رجال السلطان ، ومعهم جميع ما طلبه الدجال باستثناء (طبرمق خراسان) ، وطلب السلطان الى الدجال ان يقوم بتجربته ، ألا ان الأخير اصر على وجوب احضار (الطبرمق) باعتباره عنصراً اساسياً في الصنعة وهكذا طاف رجال السلطان بالاسواق ، واستقصوا جميع الاقرباذن ، واخيرا اهتدوا الى احدهم ، الذي قدم لهم (طبرمق خراسان) ، واخبرهم بأنه اشتراه من درويش

ومزج الدجال جميع المواد التي طلبها ، وامر أن توضع هذه المواد في بودقة وتسخن تسخيناً شديداً ، ولما اطمأن الدجال الى ان الذهب قد انصهر ، امر بتبريد البودقة ، ثم قلبها ، فتدحرجت كرة ذهب صغيرة من البودقة . وسر السلطان بهذه التجربة وامر بجائزة ثمينة للدجال . وطلب السلطان الى الدجال اعادة التجربة ، فامتثل لأمره ، ولكن طبرمق خراسان لم يعد موجوداً في الاسواق . واخبر الدجال السلطان بمقاطعة مملوءة بطبرمق خراسان ، وكان من البديهي ان يحاول السلطان الحصول على تلك المقاطعة التي تحتوي على المادة الرئيسية في تحضير الذهب ، وطلب الى الدجال نفسه الذهاب الى تلك المقاطعة ، وبعد تردد ظاهري ، قبل الدجال

الرحيل بعد ان هيأ له السلطان جميع اسباب السفر من مركب ومأكل وملبس ومأوى، واعطاه مبلغاً كبيراً من المال . ورحل الدجال دون عودة .

هذه قصة رواها هوليارد بين قصص مشابهة كثار ، ليدلل على صحة ما ذهب اليه ابن سينا من ان امر الصنعة محال . وهكذا نرى ان ابن سينا قد آمن بنظرية جابر ابن حيان في تكوين العناصر القائلة « ان جميع الاجساد كلها في الجواهر زئبق انعقد بكبريت المعدن المرتفع اليه من بخار الارض ، واختلفت لاختلاف اعراضها ، واختلاف اغراضها لاختلاف نسبها». ويعتبر بعض المستشرقين ، امثال مايرهوف ، واشاركهم الرأي ، من ان النظرية التي جاء بها جابر بن حيان في تكوين العناصر ، اكثر صواباً من نظرية الفلوجستون التي آمن بها الغرب قروناً ، حتى قوضها عملاق الكيمياء ، العالم الفرنسي (لا فوازيه) ، في اواخر القرن الثامن عشر ، اي ان نظرية الفلوجستون قد دامت بعد نظرية ابن حيان بعشرة قرون . ان المنطق والعمليات الكيمياوية ، والتعدين كلها تؤيد أن ما ذهب اليه جابر خير من نظرية الفلوجستون ، وليس بالعسير اثبات ذلك (٣٤)

وهكذا نرى ابن سينا قد اتفق وجابر بن حيان في نظرية تكوين العناصر ، وهي كما اسلفت — نظرية منطقية ، تتفق والادلة الكيمياوية حينئذ ، الا انه خالف جابراً في امكانية تحويل العناصر من واحد الى آخر ، وبالتالي الحصول على الذهب من المعادن البخسة ، بالرغم من التحفظات التي ابداها جابر في الصنعة ، وطلب الى من اراد الاشتغال بها ان يقلد الطبيعة في التوءدة والصبر الطويل ، اضافة الى حصره الصنعة في اناس وصفهم بالفطنة والذكاء ، وبالعلم والحذق في التجارب .

ومع كل هذا ، فقد نفى ابن سينا الصنعة نفياً باتاً ، وقال : ان التركيب الاساسي للعنصر في الطبيعة لا يمكن تفكيكه واعادته ثانية تركيباً آخر بعنصر مغاير . واعتبر ابن سينا تقليد الطبيعة امراً عسيراً بل متعذراً على الانسان ، ولهذا كان ابن سينا لا يؤمن بنظرية الاستحالة من عنصر الى آخر بواسطة التدبير والصنعة .

ولما كان ابن سينا طبيباً ماهراً ، ذائع الصيت ، لابد انه قام بصنع الادوية الجديدة بنفسه التي اوردها في الجزئين الاخيرين من كتاب القانون في الطب . هذا وقد اشار الى عدد كبير من العمليات الكيماوية كالتقطير ، والترشيح ، والتصعيد ،

والاستخلاص ، والتشميع ، واستعمل اجهزة مختلفة للوصول الى طلبه . شأنه في ذلك شأن ابي بكر الرازي، وذكر عدداً من المركبات الكيمياوية منها ما كان من اصل نباتي ، وآخر من اصل حيواني ، وثالث من اصل معدني . كما اعتمد في دراسة للنبات والحيوان والطبيعة على كل من الكندي وابي حنيفة الدينوري وابي بكر الرازي ،وكانت بينه وبين البيروني رسائل جاء ذكرها في دائرة المعارف الاسلامية وبعض المصادر الاخرى ، والتقى بالبيروني وبالطبيب المسيحي ابي سهل في بلاط قابوس بن وشمكير .

شخصية ابن سينا :

من الكتّاب من اعتبر الفلسفة ميدان انتصار ابن سينا وليس الطب كما ادعى البعض الاخر ، وقد حلت كتب ابن سينا محل كتب ارسطو في الفلسفة ، بالرغم من اختلاف الشيخ الرئيس مع المعلم الاول في الالهيات وما وراء الطبيعة في الدراسات الفلسفية التي تلت ابن سينا ، وقال ابن خلدون في مقدمته (٥٣) عن ابن سينا « وتجد الماهر منهم كفاً على كتاب الشفاء والاشارات والنجاة » . لقد نهج الفارابي وابن رشد نهج ارسطو وجاءت آراؤهم فيما وراء الطبيعة والنفس متشابهة الى حد كبير ، واثر ارسطو واضح في فلسفتي ابن رشد ، والفارابي . اما ابن سينا فقد خالف المعلم الاول والمعلم الثاني (اي ارسطو والفارابي على التوالي) وجاء بافكار جديدة حيث جعل ما عند الانبياء قبساً من نور الخالق العظيم ، وقد لقب ابن سينا بالمعلم الثالث ، واقر هذا التدرج من حيث الزمن فحسب .

لقد كانت حياة ابن سينا حياةً سوية ، غير ان عقله وذكاءه وفطنته لم تكن كذلك ، فنراه قد اتم علوم الدين والقراءة والادب وهو ما يزال في العاشرة من عمره ، ثم اصبح طبيباً بارزاً بل بز الاطباء جميعاً في عصره وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولقب بالشيخ الرئيس وهو في مقتبل العمر ، وعندما تحداه النحوي ابو منصور الجبائي ، — والويل لمن يتحدى العبقري—نرى ابا علي قد عكف على دراسة اللغة والنحو والبلاغة والبيان ثلاث سنوات وجاء بسفر باللغة قلما أتي به احد من قبل وهو « لسان العرب » ، ونظم قصائد ضمنها مفردات من اللغة غريبة ، وعندما قدمها الى ابي منصور الجبائي ، وطلب اليه تفسيرها كاع وعجز عن ذلك ،

واحسن بخطأ ما عمل ، واعتذر الى ابن سينا. لقد كان ابن سينا عبقرياً ، كان ممن يفكر ويحدس ، اي كان الى جانب تفكيره ذا بصيرة نفسية ، كما قسم الناس هو بنفسه ، غير ان تقسيمه كان فلسفياً وللخاصة من الناس حسب ، ولا تكتب الفلسفة للعامة . فقصد ابو علي بالقسم الذي يفكر من الناس الطبيعة السوية التي يعتمد علمها على الحواس والتحليل العقلي ، وتشمل هنا الطبقة العامة من الناس إضافة الى اصحاب العلم قليلا كان او كثيراً ، إذ ان العلم بمعناه الحديث يعتمد على الحواس والتحليل العقلي فحسب ولا يدخل الحدس (البصيرة النفسية) في مدخله ، ومما لا شك فيه ان افراد هذه الطبقة يتباينون بوناً شاسعاً في مدى المعرفة والعلم تباين الامي والعالم ، تباين التلميذ والاستاذ ، ويعتمد التباين بين الافراد الذين ينتمون الى هذه الطبقة في الذكاء والدراسة والخبرة ، قوة الملاحظة والمثابرة . اما الصنف الثاني او الطبقة الثانية التي اوجزها ابن سينا بالطبقة التي تفكر وتحدس ، اي الطبقة التي تعتمد على الحواس والتحليل العقلي اضافة الى بصيرة النفس او الالهام وهو البصيص الذي يأتي من الله تعالى لا عن طريق الحواس بل عن طريق الايحاء — وكان الاجدر بابن سينا ان يسميه الايحاء او الالهام بدلا من الحدس — فتضم طبقة العباقرة ، وبعض الفلاسفة الذين يتحدثون في ما وراء الطبيعة فيما بينهم ولا تفهمهم الطبقة السوية. ويدخل ابن سينا وغيره من العباقرة في هذا الصنف ، وينتمون الى هذه الطبقة . اما القسم الثالث ، او الطبقة الثالثة ، وهي الطبقة التي تعتمد على الحدس (بصيرة النفس) فحسب ، وتحيل ما تلهم الى الناس كلاماً مفهوماً ، ذا طابع خاص من حيث التشبيه بامور يدركها علم الانسان ، فهذه طبقة الانبياء . وقد اجاد ابن سينا عندما وصف عقل الانبياء بالعقل القدسي . وهكذا وضع ابن سينا الانبياء في منزلة تعلو على الانسان السوي ، واعتبر عقلهم عقلا قدسياً يتصل بالباري عزوجل ، فهم يلهمون ، بل يوحى اليهم ، ومن الغريب بمكان ان نرى بعض المتزمتين من يتهم ابن سينا بالزندقة والكفر ، والبعد عن الدين والله ويشهر به تشهيراً ظالماً غوغائياً ، وهو المؤمن بالله ايماناً صادقاً ايمان عبقري عالم يرى في مشيئة الله اطمئنان نفسه ، وفي تعاليمه هدياً ورشداً ، وفي انبيائه قدسية ورفعة وتبشيراً رحيماً. وكان مطيعاً لله ورسوله ، عاملا بما انزل الله على لسان نبيه الاكرم فهو يقيم

الصلاة ــ كما رأينا ــ ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتصدق على الفقراء والمساكين وابناء السبيل . اما ان يتخذ بعض من لا يفهم الدين من شربه ذريعة لتكفيره والصاق الدنذقة به ، فهذا امر لا يرضاه الله ورسوله ، وربما كان في الشرب اثم بالرغم من الظروف التي تعرض لها ابن سينا ، « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» ولا ارى ابن سينا ألا ان يطلب الى الباري تعالى ان يغفر له ذنوبه التي احسّ بها والتي لم يشعر بها ، وكلنا نطلب مغفرة الله ، ومن منا لم يذنب ، أعلم ذنوبه ام لم يعلم بها . وكان حرياً بمن كفر ابن سينا ان يسأل الله عز وجل ان يغفر لهما . وفي وصية ابن سينا ما يدلل على قولنا ، وما يثبت ايمان صاحبنا بالله تعالى وسنأتي على ذكرها في مكان آخر .واليك ما جاء في كتاب النجاة « القسم الثالث » في الالهيات ، المقالة الثانية (٣٦) « يجب ان تعلم ان المعاد منه مقبول من الشرع ، ولا سبيل الى اثباته إلا من طريق الشريعة ، وتصديق خبر النبوة . وهو الذي للبدن عند البعث . وخيرات البدن وشروره معلومة لا يحتاج الى ان تُعلّم وقد بسطت الشريعة الحقة التي اتانابها نبينا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم . حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن . » . وجاء في كتاب الاشارات والتنبهات (٣٧) ما نصه « تأمل كيف لم يحتج بياناً لثبوت الاول ووحدانيته ، وبراءته عن الصفات . الى تأمل لغير نفس الوجود ، ولم يحتج الى اعتبار من خلقه وفعله . وان كان ذلك دليلا عليه . ولكن هذا الباب اوثق واشرف ، اي اذا اعتبرنا حال الوجود ، يشهد به الوجود من حيث هو وجود، وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده من وجود ، والى مثل هذا اشير في الكتاب الكريم « سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفُسِهِمْ ، حتى يتبين لهم انه الحقُ او لم يكْفِ بربك انه على كل شيءٍ شهيد » ، وهكذا نرى الشيخ الرئيس يستمد العون من القرآن الكريم ، ليدلل على آرائه ، ولا يحتاج الى برهان بعد النص الكريم ، وقد سار الغزالي على هذا النهج ، اي انه جعل من آيات الله البينات براهين لقوله في الرد على ابن رشد وبعض فلاسفة اليونان ، ولا سيما في كتابه « تهافت الفلاسفة » .

لم يحظ احدٌ بنصيب من الشهرة في الشرق والغرب كنصيب ابن سينا ، حتى بات عند البعض اسطورة ، وشخصية خيالية مرحة ، وبطل مغامرات غريبة مضحكة

وتوجد مجموعة من الاقاصيص التركية ، نورد هنا واحدة منها ذكرها (البارون كارا دفو) عن شارل ويلز (٣٨) :

كان يوجد ملك في حلب ، وكانت هذه المدينة قد خرّبها عدد عظيم من الفئران التي كانت مصدر ضرر لاهل المدينة ومما حدث يوماً ان كان الملك يكلّم ابن سينا ، وان الحديث دار حول الفئران ، فسأل الملك هذا الطبيب عن وجود وسيلة لابادتها فأجاب الطبيب بقوله : « استطيع ان اصنع ما لا يبقى معه اية فأرة في المدينة في بضع ساعات ، ولكن على ان تكون انت عند ابواب المدينة وألاّ تضحك مما ترى» ، فرضي الملك بذلك مسروراً ، وشد السرج على فرسه ، وذهب الى الباب وانتظر ، وذهب ابن سينا من ناحية الى الطريق المؤدية الى الباب ، واخذ يقرأ احدى الرّقى فجاءت فأرة ، فأمسكها ابن سينا وقتلها ووضعها في تابوت ورعا اربعة فئران لحمله ويداوم على رقـــاه ، وتأخذ الفئران في المشـــي وهي تخبط ارجلها ، وتحضر فئران المدينة كلها لحضور الجنازة ، وتتقدم مصفوفة الى الباب حيث كان الملك ، ويسبق بعضها الجنازة ويسير بعضها الاخر خلفها ، وينظر الملك ، ولكنه لم يتمالك ان قهقه عندما رأى الفئران الحاملة للتابوت ، وتموت جميع الفئران التي جاوزت الباب حالا ، واما التي لم تزل داخل المدينة فقد انفصل بعضها عن بعض وفرت ، فقال ابن سينا : « ايها الملك ، لو امسكت عن الضحك بضع دقائق اخرى ما بقى في المدينة واحدة منها ، ولكشف الهم عن جميع الناس » . فندم الملك ، ولكن ما الحيلة ؟ لا فائدة من ندم بعد الاوان .

واورد البيهقي (٣٩) حكاية عجيبة — كما وصفها نفسه — ، « كان ابو علي يحضر مجلس علاء الدولة وعليه قباء داري * وعمامة خيش وخف أدم ، ويجلس بين يديه قريباً منه . وكان يتبين اثر السرور في وجه الامير إذا حضر ، لتعجبه من جماله وفضله وظرفه ، فاذا تكلم بين يديه استمع له اهل المجلس ، لا ينبسون بحرف حتى ينتهي ، واتفق ان اعطاه الامير علاء الدولة منطقة مفضضة مذهبـــة مع السكاكين ، ثم رآها الامير مع غلام من خواص غلمانه ، فقال له من اين هذه المنطقة ؟ فقال اعطانيها الحكيم . فاشتد غضبه عليه ، وصك وجهه ورأسه وامر بقتله ، فطلبوه فوجده واحد من اصحاب الامير فخلاه حتى هرب ، وقد غير ثيابه وزيه .

* داري اوزري ، ومعنى هذا بين الكبير والصغير .

فدخل السوق لتحصيل القوت ، فرأى ان يطالع مقامات الناس فورد الري على هيئة المتصوفة وعليه مرقعة وليس معـــه شيء ينفقه على نفسه يتخذ ما هـــو اروح ، وكان يطالع واحداً بعد واحد ، حتى اطلع على شاب ظريف اتخذ مقاماً على باب داره ، وقد اجتمع عليه خلق كثير فأرته امرأة تفسرة * . فقال لها هذه تفسرة يهودي ، فاعترفت وقالت : هي كما تقول . ثم قال : وقد تناول رائباً . فقالت : نعم . ثم قال : داركم في المدينة في موضع منخفض من الارض ، فقالت هي كذلك فتعجب الحكيم من ذلك ، فنظر الشاب اليه وقال : انت ابو علي ابن سينا ، هربت من علاء الدولة فاجلس ، فجلس بجنبه حتى فرغ الشاب من شأنه ،واخذه بيده وادخله داره ، وامر حتى ادخل الحمام ، والبسه ثياباً حسنة ، ودعا بالطعام ، فقال الشيخ ابو علي : كيف تعرف من التفسرة انها تفسرة يهودي فقال : رأيت في يدها قميصاً عليه غيار (*) اليهود ، ورأيته ملوثاً بشيء من الرائب ، فحدست انه اشتهى الرائب وتناوله ، واليهود كلهم يسكنون المدينة الداخلة من بلدنا ، وجميع الدور في تلك المدينة في انخفاض . فقال له الشيخ : وكيف عرفتني ؟ فقال الشاب كنت اسمع بجمالك وحسن هيئتك وفطانتك ، فلما نظرت اليك حدست انك هربت من علاء الدولة ، واني لأعلم انه يزول غضبه عنك ، ويشتاق الى لقائك ، ويردك الى مجلسه ، فأردت ان اتخذ عندك يـــداً ، قال ابو علي : فما حاجتك ؟ فقال الشاب . ان تحضرني في مجلس الامير ، وتحكي له ما رأيته لعله يستظرفني للمنادمة . فما مضى إلا ايام قلائل حتى طلب علاء الدولة الحكيم ، وخلع عليه ، ورده الى مجلسه ، فحمل ابو علي معه الشاب الى اصفهان ، وحكى للامير ما رأى من حاله ، وارتضاه الأمير وصار من ندمائه » .

ولابن سينا وصية اوصي بها بعض اصدقائه ، وهو ابو سعيد ابن ابي الخير الصوفي حيث قال : ليكن الله تعالى اول فكر له وآخره ، وباطن كل اعتبار وظاهره ولتكن عين نفسه مكحولة بالنظر اليه ، وقدمها مرموقة على المثول بين يديه ، مسافراً بعقله في الملكوت الاعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى ، واذا انحط الى قراره فلينزله الله تعالى في آثاره فانه باطن ظاهر ، تجلى لكل شيء بكل شيء

ففي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى انـــه واحـــد

* التفسرة بول يستدل به على حال المريض وعلته .

* الغيار علامة أهل الذمة كالزنار ونحوه ، وقيل علامة خاصة باليهود (تاج العروس)

فاذا صارت هذه الحال له ملكة انطبع فيها نقش الملكوت ، وتجلى له قدس اللاهوت ، فألف الانس الاعلى ، وذاق اللذة القصوى ، واخذ عن نفسه من هو بها اولى ، وفاضت عليه السكينة ، وحقت عليه الطمأنينة وتطلع الى العالم الادني اطلاع راحم لاهله ، مستوهن لحيله ، مستخف لثقله ، مستحسن به لعقله ، مستضل لطرقه ، وتذكر نفسه وهي بها لهجة ، وببهجتها بهجة ، فتعجب منها ومنهم تعجبهم منه ، وقد ودعها وكان معها كأنه ليس معها ، وليعلم ان افضل الحركات الصلاة ، وأمثل السكنات الصيام ، وانفع البر الصدقة ، وازكى السر الاحتمال ، وابطل السهي المرأ المراآة ، ولن تخلص النفس عن الدرن ما التفتت الى قيل وقال ، ومناقشة وجدال ، وانفعلت بحال من الاحوال . وخير العمل ما صدر عن خالص نية ، وخير النية ما ينفرج عن جناب علم ، والحكمة ام الفضائل ، ومعرفة الله اول الاوائل ، اليه يصعد الكلم الطيب . والعمل الصالح يرفعه . ثم يقبل على هذه النفس المزينة بكمالها الذاتي فيحرسها عن التلطخ بما يشينها من آلهيات الانقيادية للنفوس الموادية التي اذا بقيت في النفوس المزينة ، كان حالها عند الانفصال كحالها عند الاتصال ، اذ جوهرها غير مشاوب ، ولا مخالط وانما يدنسها هيئات الانقياد لتلك الصواحب ، بل يقيدها الاستيلاء ، والسياسة ، والاستعلاء والرياسة . وكذلك يهجر الكذب قولا وتخيلا ، حتى تحدث للنفس هيئة صدوقة ، فتصدق الاحلام والرؤيا . واما اللذات فيستعملها على اصلاح الطبيعة ، وابقاء الشخص او النوع او السياسة . اما المشروب فانه يهجر شربه تلهياً ، بل تشفياً وتداوياً ، ويعاشر كل فرقة بعادته ورسمه ، ويسمح بالمقدور والتقدير من المال ، ويركب لمساعدة الناس كثيراً مما هو خلاف طبعه ، ثم لا يقصر في الاوضاع الشرقية ، ويعظم السنن الالهية ، والمواظبة على التعبدات البدنية ، ويكون دوام عمره ، إذا خلا وخلص من المعاشرين ، تطربه الزينة في النفس والفكرة في الملك الاول وملكه ، وكيس النفس عن عيار الناس من حيث لا يقف عليه الناس ، بما هو الله انه يسير بهذه السيرة ، ويدين بهذه الديانة ، والله ولي الذين آمنوا وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أفبعد هذا الايمان الصادق بالله تعالى ، والالتزام بما امرنا به من فروض ، والهدي بهديه من حيث التعامل مع الناس ، ورفعة الرسل والانبياء ، وقد اعتبر ابن

سينا عقول الانبياء قدسية ، وفوق عقول البشر الاسوياء ، وافئدتهم نوراً يضيء للناس الطريق ، فيبدد الظلمة ، ويطهر النفوس ويهدي الى الصراط المستقيم . اللهم ارحم ابن سينا ، واغفر ذنوبه وذنوبنا ، وانت الغفور الرحيم .

فلقد كان عبقرياً وعالماً حقاً وكان يخشى الله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور »

بغداد ــ الثامن من ذي الحجة الموافق لليوم الحادي عشر من كانون الاول عام خمسة وسبعين وتسعمائة والف ، ١٩٧٥

المراجع

فاضل الطائي

٣٣ــ هوليارد ــ الكيمياء القديمة ، كتب البطريق ، الطبعة الاولى ١٩٥٧ م ص ٩٠ ــ ٩٥ .

33) Holmyard, E.J. , Aehemy, Penguin Books, 1457 p.p 90-95

٣٤ــ فاضل الطائي : مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد السادس عشر ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٦٧ ، ص ١٧ ــ ١٩

٣٥ــ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ج٣ ، ص ١١٧ ، طبعة باريس .

٣٦ــ الدكتور البير نصري نادر

النفس البشرية عند ابن سينا ، دار المشرق بيروت ١٩٦٨م ص ١٠٣

٣٧ــ الدكتور سليمان دنيا : الاشنارات والتيهات لابي علي بن سيناء مع شرح نصيرالدين الطوسي القسم الثالث ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ص٥٤ــ ــ٥٥ ، لم تذكر سنة طبع الكتاب

٣٨ــ شال ويلز : آداب الترك ، ص ١١٤ .

٣٩ــ البيهقي : راجع المصدر رقم (٦) ص ٧٠ ــ ٧٢ .